مجلة ميلاف للبحوث والدراسات
المجلد 9 العدد 2 / ديسمبر 2023
ص ص 110–128

جمالية الأنا في شعر ابن الرومي

The Aesthetic of the Ego in the Poetry of Ibn al-Rumi

مسعود بن ساري
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميلة (الجزائر)، m.bensari@centre-univ-mila.dz

الاستلام: 2023/07/20 القبول: 2023/12/31 النشر: 2023/31/31

ملخص:

أخذت الأنا الشاعرة دورا محوريا في التشكيل الشعري لابن الرومي، وشكلت مسألة الحضور البارز للأنا ظاهرة في ديوانه الشـعري، الذي لم يسـتوف الباحثون والدارسـون ظواهره، إلى يومنا هذا، ليعبر عن تجربة الذات في الحياة، بتكرار لفظ الأنا، وتعدد معانيه ودلالاته، وثراء طرق نظمه في شعره.

ليصبح الأنا أنوات، محمّلة بمعان ودلالات نفسية، وقيم جمالية، بسبب تنوع القصد واختلاف السياقات، وخصـوصـية الأنا عنده، مثل أنا الفخر والثناء، وأنا العشـق والنسـاء، وأنا السـكر والانتشـاء، وأنا الضـعف والبكاء، وأنا المدح والإطراء، وأنا المسخ والهجاء، وأنا الرحلة والبقاء.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الجمالية، ابن الرومي، شعر ابن الرومي

Abstract:

The poet's ego took a pivotal role in the poetic formation of Ibn al-Rumi, and the issue of the prominent presence of the ego was a phenomenon in his poetic collection, whose researchers and scholars did not meet its phenomena, to this day, to express the experience of the self with life, by repeating the word ego, and the multiplicity of its meanings and connotations, and the richness of the ways it was organized in his poetry.

The ego becomes egos, loaded with meanings and psychological connotations, and aesthetic values, because of the diversity of intention and the different contexts, and the specificity of the ego has, such as the proud ego, the lover ego, the drunken ego, the weak weeping ego, The praising and the thankful ego. The satirical ego, and the traveling and the resident ego .

Keywords: ego, aesthetic, Ibn Rumi, Ibn Rumi poetry

1.مقدمة:

في هذا السياق البحثي تبرز **الإشكاليات** الآتية: لماذا أسرف ابن الرومي في توظيف ضمير الأنا في شعره؟ وكيف نوَّع بين استعمال الضمير المنفصل أنا، وتاء المتكلم، وياء المتكلم؟ وما دلالة ذلك؟ وما هي أنواع الأنوات عنده؟ وكيف تجلت؟ ولماذا؟ وما هي جمالياتها؟ وما هي دوافعها النفسية؟

وتفترض الدراسة أنّ مقاربة النصوص الشعرية القديمة بمناهج حديثة تعطي نتائج جيدة. وأن المقاربة النفسية الجمالية من أصلح المناهج لدراسة النصوص من هذا النوع.

أما من حيث **المنهج** فنجد حضورا للمنهج التاريخي، ونجد المنهج الفني الجمالي، ثم النفسي الذي حللنا على ضوئه الأنوات، من حيث أنواعها. ودوافعها.

ويهدف المقال إلى كشف مظاهر الإبداع الذاتي الشعري عند ابن الرومي، وأسرار عبقريته، والمؤتلف والمختلف في شعره عن غيره. وقد شغل ابن الرومي القدماء والمحدثين، **فصنفوا** فيه، وأشهرها كتاب: ابن الرومي حياته من شعره للعقاد، وكتاب: ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره لإيليا سليم الحاوي.

فلقد كانت لابن الرومي ذاته وحياته كما يهوى هو ويحب، ولم يكن ممن يسعون للألقاب، ويتكالبون على المناصب والمراتب، وتغيب ذواتهم في الخلفاء والأمراء، ونسج لنفسه عالمه الخاص، وفصَّله على قَدِّ مزاجه وخياله، ورؤاه. ثم عاش فيه شاعرا متوحدا، لا يصله بعوالم عصره سوى خيوط رفيعة شفافة، أقواها: حسه وذائقة الجمال فيه" (شرف الدين، 1984، صفحة 382). وشكل عالما موضوعه ذاته وأناه، ووسيلته شعره وعبقريته.

وإلى جانب فلسفته هذه في الحياة، وموقفه منها، كان قليل الحظ بين أبناء عصره، يسعى نحو رزقه فلا يحصله، ويجتهد للتكسب فلا ينال قوت يومه. ويطلب الإنصاف، فلا ينال غير التهكم والتندر منه؛ لذلك نشأ حاسدا لذوي النعمة هاجيا، يتمنى الغنى لذاته، ليقتل الفقر والفاقة، ولينعم بالملذات والترف ففشل. فعاتب وكره وحسد حتى أصبح متطيرا معقدا متشائما موسوسا، لا يرى في الناس سوى الأذى والشر والفساد والرذيلة" (سعد الدين وعبد الرحمن، 1962، صفحة 282).

فتضخم عنده الأنا وتعدد وتلوّن بألوان المعاناة، معاناة الفقر المدقع، ومعاناة الفقد الموجع، ومعاناة الكيد والتجاهل، ومعاناة التقليل من شاعريته، ومعاناة رميه بالموسوس والمتشائم والحاسد والمتطير، -وإن كان كذلك- ، فالعبقرية لا تولد إلا في رحم سلوكات غريبة وشاذة، كما أثبتت لنا سير العباقرة وحيواتهم. "حتى قال بعضهم إن حقدَه سبَبُ عبقريته، وقال البعض الآخر: هذا يعود إلى اضطراب في عقله، ومهما يكن من الأمر فإن من الحقائق الواضحة أن العبقرية والجنون مظهران لشيء واحد، هو اختلال التوازن العقلي" (خليل، 1963، صفحة 101).

لقد جعل ابن الرومي استراتيجية لمواجهة ذلك الشقاء، لينقذ أناه وذاته، ويحيا حياة كريمة، وينعم باللذة، وينهل من أطايب الحياة كلها؛ "والحياة عنده لذة يتطلبها، واللذة عنده شهوة إلى الجمال، يتبعه أينما بدا له، فيستعذبه في وجوه النساء والغلمان، وفي أصوات المغنين والقيان، وفي الطبيعة وما عليها من صور وألوان" (سيليا، 1956، صفحة 30)، ذلك ابن الرومي الإنسان.

2. ترجمة الشاعر

هل حري بنا أن نعرف هذا الشاعر؟ وهو معروف مشتهر، ف"من الأدباء من لا يحتاج إلى شيء من ذلك، فاسمه خالد، وأدبه معروف، وشخصيته متميزة" (نصار، 2003، صفحة 5). ولكن لا بأس أن نقول فنختصر، فإن في ذلك لذكرى وعبرا، إنه: "أبو الحسن علي بن العباس بن جريج، وقيل جورجيس، المعروف بابن الرومي مولى عبيد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب"

(ابن خلكان، 1900، صفحة 358). وتقتضي صلة الولاء أنه أسلم على يد مولاه عيسى بن عبيد الله، وأنه أعتقه نظير ذلك. وإن مولاه هذا كان قريبا للعباسيين، حيث كان ابن عم هارون الرشيد، وأخا زوجته المشهورة زبيدة (روفون، 2011، صفحة 12).

ولد ابن الرومي في بغداد (02 رجب 221هـ = 21 جوان 836م) من أب رومي وأم فارسية، وقد أثبت ذلك في بعض شعره حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 2356):

كَيفَ أُغضي على الدَّنيَّة والـ ...

فرس خَؤولي وَالـرُّوم أعمامي

عاصر ابن الرومي العصرين العباسيين الأول والثاني من القرن الثالث الهجري، الذي يصفه العقاد بأنه: " كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة، كان عهد اليقين والإيمان، وكان عهد الحرية والشكوك، كان أوان النور وكان أوان الظلام، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط: بين أيدينا كل شيء، وليس بين أيدينا شيء قط" (العقاد، 2014، صفحة 13). وهو يقصد بأن بغداد كانت عاصمة الدنيا آنذاك، ومقصد الناس جميعا، وحلم كل من يطمح أن يعيش عيشة الرخاء، والشهرة، في جميع مناحي الحياة. وفي الوقت نفسه كانت مأوى كثير من المتشردين، والمفلسين، أمثال ابن الرومي.

حُرِم الشاعر رعاية الأب طفلا صغيرا، حيث توفي أبوه، فكفلته أمه وأخوه الأكبر، وأنفقوا عليه مما ترك أبوه من مال. سرعان ما أتلفه أخوه الأكبر في جلسات اللهو والخمر، وإن كان مواظبا على جلسات العلماء، ومدمنا على معاشرة الأدباء والظرفاء، ومحبا للأدب ومصاحبا أخاه ابن الرومي معه، لينهل من أدب أولئك ومن سلوكاتهم كذلك. "نال طرفا صالحا من علوم العربية كاللغة والنحو والأدب ومن العلوم العقلية والطبيعية، كما ألم بأخبار الفلاسفة وبعلم الكلام، ولكن من التَّمحُّل البعيد أن ننسب إليه معرفة باللغة اليونانية أو اللغة الفارسية، وكان من كتاب الدواوين، ولكن الشعر غلب عليه، فلم يعرف إلا بالشعر" (فروخ، 1981، صفحة 340).

صور لنا ابن الرومي مرحلة شبابه في شعره لاهيا بذخا، لاهثا وراء الطعام والشهوات والملذات، من الشراب والمغنيات، متحسرا على تلك الحقبة في شيخوخته. وقد تزوج مرتين، وأنجب من زوجتيه، ولكن سرعان ما فقد أهله جميعا، حيث مات والده ثم أمه وخالته، ثم أخوه الأكبر المعيل، ثم أولاده الثلاثة، ثم زوجته الأولى. فعانى الشاعر مأساة نفسية كبيرة، وفاقة وحاجة، وفوضى الحياة الاجتماعية والسياسية والطبقية، اجتمعت كلها عليه، فقضى معظم أيامه في عزلة وانزواء، وتفجر شعرا خالدا كما سنرى.

توفي ابن الرومي في جمادى الأولى سنة 283هـ، ودفن في مقابر باب البستان، "وَكَانَ سَبَب مَوته أَن الْوَزير أَبَا الْحُسَيْن الْقَاسِم يخَاف هجوه، وفلتات لِسَانه بالفحش، فَدسّ عَلَيْهِ ابْن فرَاس، فأطعمه خشكنانجة مَسْمُومَة وَهُوَ فِي مَجْلِسه، فَلَمَّا أكلهَا أحس بالسم فَقَامَ، فَقَالَ لَهُ الْوَزير أَيْن تذْهب؟ فَقَالَ إِلَى الْموضع الَّذِي بعثتني إِلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ: سلم على وَالِدي. فَقَالَ مَا طريقي على النَّار. وَخرج من عِنْده وأتى منزله وَأَقَام بِهِ أَيَّامًا وَمَات" (أيبك، 2000، صفحة 14). وهكذا نرى العجائبية والطرافة حتى في قصة موته.

3. بين الجمال والجمالية

يرى كثير من الدارسين المحدثين أن النظرية الجمالية برمتها نظرية غربية في مصطلحها ومفهومها النقدي؛ ولا يمكن إنكار هذه الحقيقة، فلفظ (الجمالية) مصطلح حديث، وهي مصدر صناعي يقابل الجمالي. وقد جاء في معجم المصطلحات أن الجمال هو: "حُسْنٌ، مَلاحَةٌ، وسامة، بَهاء، وحالة ما هو جميل، هو ما يثير فينا إحساسا بالانتظام والتناغم والكمال. وقد يكون ذلك في مشهد من مشاهد الطبيعة، أو في أثر فني من صنع الإنسان، كما نجد أن الجمال: صفة تلحظ في الأشياء، وتبعث في النفس سرورا ورضا (المهندس، 1984، صفحة 138).

فالجمال أو الجميل تطلق على كل ما يبعث في النفس شعورا باللذة والسرور والإعجاب، وبذلك يهتم علم الجمال، بالذوق الفني، ويبحث في شروطه ومقاييسه، مطلقا أحكاما قيمية متعلقة بالآثار الفنية، لنستشف منه فهم الذات الشاعرة، المشتركة في مبادئها بقيم جمالية، تعكس أسمى العواطف النبيلة، والقيم الإنسانية؛ ومع المتلقي لتمييز الجميل في تشكيل الأنا عند ابن الرومي.

وإذا نظرنا إلى مفهوم الجمال أو الجمالية بالمعنى الاصطلاحي نجدها "تمثل رؤيا خاصة للفن، وطريقة لملامسة ما يوجد فيه من جمال، لأجل تذوق فني يكشف حقيقة ما لذاك النص من جمال، وآثاره على (..) الأفراد الآخرين المتذوقين" (خرفي، 2005، صفحة 21). وهو ما يقودنا إلى الكشف عن جمالية النصوص الشعرية من حيث الدقة والإتقان فضلا عن انتظام التراكيب والألفاظ والإيقاع، وبهذا يصبح هذا المصطلح منهجا جماليا لدراسة النص الإبداعي من حيث سعيه إلى تكريس معايير الجمال وقواعده.

وهي من سمات العلوم المعيارية، وهو ما أدى ب(كانت) للقول أنه: "لا يوجد علم للجمال، ولكن هناك نقد جمال" (كانط، نقد العقل المجرد، 1965، صفحة 67). على اعتبار أن قواعد الجمال يتم الوقوف عليها بعد تحقق العمل الفني، الأمر الذي يعيق صياغة قواعد جمالية مسبقة على أعمال فنية، لم تر النور بعد، ليعتمد على قوانين الجمالي في الأثر الإبداعي بعد صياغة الأثر نفسه. وهو ما يسمح لنا بالوقوف على جمالية الأنا عند ابن الرومي.

4. الأنا والمنهج النفسي

يطرح المنهج النفسي ثلاث مجموعات من الأسئلة، ويحاول تفسيرها والإجابة عنها وهي: أولا؛ كيف تتم عملية الخلق الأدبي من الوجهة النفسية؟ وما العناصر الشعورية وغير الشعورية فيها؟ وما الحوافز الداخلية والخارجية منها؟ ثانيا؛ ما دلالة العمل الأدبي على نفسية صاحبه؟ وما التطورات النفسية لصاحبه من خلال النص الأدبي؟ ثالثا؛ كيف يتأثر الآخر بالعمل الأدبي عند مطالعته؟ وما نسبة التأثير الناشئة من العمل الأدبي وما نسبة التأثير الناشئة من ذات القارئ (قطب، 2003، الصفحات 207-208)؟

اجتهد سيغموند فرويد Sigmund Freud في وضع الأسس العامة للقراءة النفسية للأدب وحاول على ضوء هذه الأسس أن يضع تفسيرا لظاهرة الإبداع الفني بواسطة فكرة "التسامي النفسي" لدى المبدع، وهي الخاصية التي تدفعنا إلى قراءة الأدب، والشعور بجماله أو النفور منه، وفق بنية عاطفة كل قارئ، ولهذا السبب نجد لها

بعدا اجتماعيا، وأفكاره الرئيسية التي تقوم عليها آراؤه السيكولوجية هي: الكبت والرغبة الجنسية ومرحلة الطفولة.

أوضح فرويد Freud أن الناس لا يقولون أو يفعلون شيئاً مصادفة من غير قصد، فالنشاط العقلي غير المدرك يؤدي إلى مثل تلك المصادفات، كزلة اللسان مثلاً، أو نسيان موعد، وحسب ما يقول به فرويد، يمارس العقل نشاطاً غير مُدْرَك أكثر من المُدْرَك. وقسَّم العقل إلى ثلاثة أقسام: الهو والأنا والأنا الأعلى (فرج وآخرون، د.ت.ط، الصفحات 63-64-477). و(الشويخات وآخرون، 1999، صفحة 134) وهكذا فالأنا من صميم الاتجاه النفسي الفرويدي، الذي نعول عليه في هذه المقاربة، كما سنفيد من آراء تلميذه أدلر Adler، صاحب مدرسة: علم النفس الفردي أو علم النفس الأدلري (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 321)، في تفسير التجربة الشعرية عند ابن الرومي، بأبعادها الإبداعية النفسية والجمالية.

5. تمظهرات الأنا وجمالياته:

ولربما سأل سائل: ما علاقة النفسي بالجمالي؟ وكيف يمكن الجمع بينهما في تحليل الخطاب الشعري معا؟ فنقول: إن علم الجمال فرع من علم النفس، ولدينا اليوم: (علم النفس الجمالي)، وهو: "فرع من فروع البحث في علم النفس، ظهر على يد فخنر G.T Fechner والذي يهتم بالتذوق وبالشكل والعلاقات المكانية والألوان وتكوينها (..) بتطبيق طرائق علم النفس التجريبي على المشكلات المتعلقة بالفنون وأثر الدوافع على إدراك الصور والأشكال" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 317). وهذه تمظهرات الأنا وجمالياته فيما يلي:

1.5 أنا الفخر والثناء:

إن الباعث الفعلي للفخر عند ابن الرومي هو الشعور النفسي بتلك القوى العظيمة الكامنة في ذاته، والرغبة في إبرازها، والباعث الثاني إحساسه بأن المجتمع ما قَدَرَه حَقَّ قَدْرِهِ، إذْ قالوا ما هو بعاقل، بل مجنون، ومتطير، وحاسد، وهجّاء سليط اللسان؛ ولربما تعرضت الذات الشاعرة إلى المنافسة والانتقاص منها، والتقليل من احترامها، والعبث بها؛ هنا يأتي الفخر والثناء على الذات، ويأتي "دفاع الأنا (..) حتى يحمي نفسه من الانهيار، ويحقق لنفسه التكامل والسلامة" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 197). لم يعوّل ابن الرومي في فخره على كثير، كقوة البدن، أو جمال المظهر، أو شجاعة الميدان، أو كرم البذل والعطاء. لم يعوّل سوى على نسب تنازعته ثلاثة أصول: أبوة رومية، وأمومة فارسية، ونسب بالولاء عربية عباسية. وقد أشاد بنسبه الرومي خاصة، وبنسبه العربي ولاءً على الأخص، وتجاهل نسبه الفارسي إلا نادرا، رغم تمكن الفرس في دولة بني العباس، في الدواوين والجند وخدمة السلطان؛ إذْ يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 2056).

كَيفَ أُغضي على الدَّنية والـ ...
فُرْسُ خَوُّولي وَالرُّوم أعمامي
وقد تتوَّجت من ولاء أبي الْـ ...
عبَّاسِ تاجًا يسْمُو بِهِ السَّامِي

إن فضل النسب لا يقف عند هذا الحد -في زعمنا-، فعلم الوراثة أثبت أن المولود يرث الصفات الجسمية والعقلية والنفسية مناصفة من والديه؛ وللرومان -كما نعلم-فضل "في كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق؛ في الفلسفة، والرياضة، والفلك، في علوم الطبيعة والحياة

والطب، في الأدب، في التاريخ، في السياسة، في الفنون الجميلة" (أمين، 2012، صفحة 235). أما الفرس الذين تعربوا فقد ملأوا الدنيا في العصر العباسي علما وحكمة وشعرا ونثرا، والفرس من قديم ميالون إلى الإفراط في الشراب، والإفراط في الغناء واللهو والترف (أمين، 2012، الصفحات 175-176).

فإذا تأملنا ابن الرومي، وجدنا له حظا ورثه من ثقافة الروم والفرس، فمن الروم نلمس تفلسفه وحكمته، ومن الفرس ورث إفراطه في الأكل والشرب وحب الغناء واللهو. ولا ريب أنه اكتسب من تعرُّبه قيم العروبة والإسلام، ولكن أصوله تجاذبته، فلم يلتزم بالدين التزام الصادقين، ولم يفارق مجالس القيان والشراب واللاهين صغيرا أو كبيرا. أكَّدَ ذلك طه حسين إذ يقول: "وابن الرومي كان قريبا جدا من أصله اليوناني، لم يبعد العهد به فتضعف وراثته، ولم يتأثر بوراثات أخرى، فهو إذن بطبيعته وفنه، مخالف كل المخالفة لكثرة الشعراء" (حسين، 2013، صفحة 127)، السابقين له والمعاصرين.

ثم يشيد ابن الرومي بشعره وشاعريته مفتخرا؛ ومخاطبا الأخفش الذي انتقد شعره، وانتقص منه؛ فيقول: إن شعره عميق لا يُنَال إلا من تأمل، ولا يُفْهَمُ إلا من إنسان ذي فهم وعقل ذكي، ومن لم يفهم شعره فاعلم أنه حيوان وليس إنسانا. قال الشاعر (ابن الرومي، 2003، صفحة 734).

شعريَ شعرٌ إذا تأمَّله الـ ...
إنسان ذو الفهم والحجا عَبَدَهْ
لكنه ليس منطقاً بعثَ الـ ...
لَهُ به آيةً لمن جحدَهْ
ولا أنا المفهِم البهائَم والـ ...
طَيْرَ سليمانُ قاهرُ
المردَهْ
ما بلغتْ بي الخطوب رتبةَ من ...
تفهم عنه الكلاب والقردَهْ

والحقيقة أنه كذلك، شهد له بشاعريته، القدامى والمحدثون. قال ابن رشيق: "أما ابن الرومي فأولى الناس باسم شاعر؛ لكثرة اختراعه، وحسن افتتانه" (القيرواني، 1981، صفحة 286). وقال ابن خلكان: "الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب، والتوليد الغريب، يغوص على المعاني النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها في أحسن صورة، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه إلى آخره ولا يبقي فيه بقية" (ابن خلكان، 1900، صفحة 358). وقال آخر: "أما ابن الرومي فأغرب ما فيه طبيعته الفنية، وقدرته الفذة على أن يجعل من كل شيء شعرا قريب التناول، حسن التصوير، بعيدا عن الكلفة" (سعد الدين وعبد الرحمن، 1962، صفحة 270)، وقال العقاد أكثر من هذا (العقاد، 2014، الصفحات 9-10-11).

أشاد ابن الرومي بشعره لأنه لم يُعْطَ مقابلا مكافئا له، يحفظ به ماء وجهه من التسول، "وقد كان (..) فنه الشعر، (و)الشعر عنده أحق ما في الحياة بالعناية والإكبار، وقائله أولى الناس بأن توفر له أسباب الحياة التي يتطلبها فنه، وهو (..) أحق مخلوقٍ أو شاعرٍ بذلك، فمن حقه على الناس أن يرزقوه إذا لم يستخدموه" (المازني، 2010، صفحة 245). ولم يكن الشعر صنعته الوحيدة التي يتقنها، فقد قيل: إن الشعر أقل ما كان يحسنه، بمعنى أنه كان يتقن صناعات أخرى غير الشعر، مثل الخطابة، والكتابة، والحكمة،

والبلاغة وغيرها مما صرّح به في قوله: (ابن الرومي، 2003، صفحة 31):

إن أكن غيرَ مُحسنٍ كلَّ ما تطْ ...

لبُ إني لَمُحْسنٌ

أجزاءَ

فمتى ما أردتَ صاحبَ فحصٍ ...

كنتُ ممن يُشارك الحكماءَ

ومتى ما أردتَ قارض شعرٍ ...

كنتُ ممن يُساجلُ الشعراءَ

ومتى ما خطبتَ مني خطيباً ...

جلَّ خطبي ففاق بي الخُطباءَ

ومتى حاول الرسائلَ رُسْلي ...

بلَّغَتْني بلاغتي البُلغاءَ

وفي مقام آخر نجده متعففا عن الرغبة في المال والغنى، ساعيا إلى المجد والعلا. يقول ذلك وهو أحوج الناس إلى المال والغنى، قال: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1105):

وما أنا إلا محرز المجد والعلا ...

وذلك كنزي لا اللجين والتبر

وهكذا يبدو لنا أن ابن الرومي "لم يطلب ملكا ولا حكما ولا رياسة، وإنما طلب السلامة من الناس، وإنصاف أدبه وفضله وفنه، وإعطاءه حق ذلك الأدب والفضل مما في أيدي الوجهاء والرؤساء والأمراء، من أموال الله والناس التي كثيرا ما كانت تنهب نهبا" (شكري، 1939، صفحة 244). ويبدو الأنا في مقام الفخر متضخما ومتعاليا فوق كل الأنوات والذوات الأخرى، يرى أن فضل مدحه على ممدوحه أكثر مما يجنيه من مدحياته مهما غلا.

2.5 أنا العشق والنساء:

ارتبط أنا العشق وقصص المغامرات مع النساء عند الشاعر بالجسد وبمرحلة الشباب، حيث القوة والعنفوان وتأجج غريزة الجنس؛ ونعتقد أنه كان الدافع الأساسي في غزلياته، نضيف إلى ذلك حسه الشاعري المرهف بالجمال أينما كان، وكيفما كان؛ "وصلة ابن الرومي بالنساء تظهر في أربعة أصناف: الزوجة، والقينة: -وهي: جمع قيان، وهي طبقة اجتماعية من النساء تدربن على الترفيه في العصر الأموي والعباسي والأندلسي، وغلب اسم القينة على المغنية-، والعشيقة، وقريبة المهجو زوجة كانت أو أختا أو بنتا أو أما. وقد خاطب كل صنف منهن خطابا شعريا مغايرا" (الرحمن، 1977، صفحة 22).

أسرف ابن الرومي في مدح القيان الجميلات، المحسنات للغناء، وفي التغزل بهن، كما هجا منهن دميمات الوجوه قبيحات الصوت؛ وهو في نقده لهن يبدو عارفا بالأصوات والمقامات، خبيرا بتأثير الطبقات والمعازف والحركات أثناء الغناء. تعلّق الأنا بالقينة صوتا ومنظرا وحركة وعزفا وكلمات، فعشقها وهام بها. قال في مغنية اسمها وحيد الخفيف (ابن الرومي، 2003، الصفحات 762-765):

يا خَلِيلَيَّ تَيَّمَتْني وَحيدُ ...

فَفُؤادي بها مُعَنًّى عَمِيدُ

تتغنَّى كأنها لا تُغَنِّي ...

من سكونِ الأوصالِ وهي تُجيدِ

وأرقَّ الدلالُ والغُنْجُ منه ...

وبَراهُ الشَّجا فكاد يبيدُ

وَتَرُ العَزْفِ في يَدَيْها مُضَاهٍ ...

وَتَرَ الزَّحْف فِيهِ سهمٌ شَديدُ

خُلِقَتْ فِتْنةً غِناءً وحُسْناً ...

ما لها فيهما جميعاً نَدِيدُ

مَنْظَرٌ مَسْمَعٌ مَعانٌ من اللَّهْ ...

وعِتادٌ لما نُحبُّ عَتيدُ

وفي علاقة الأنا بالمرأة عشيقة، وتعلقه بها، فإن سببه "لم يكن من طريق النظر والسمع وحدهما، بل كان لحواسه الأخرى، -ولا سيما اللمس-حظ وافر من القدرة على إفادة الاستمتاع بالجمال" (المازني، 2010، صفحة 270). وابن الرومي بارع في وصف ذلك، يصوره تصويرا تحسه بكل حواسك، وتشاركه فيه. ومن ذلك قوله (ابن الرومي، 2003، صفحة 2485):

أعانقها والنفسُ بعدُ مشوقةٌ ...

إليها وهل بعد العناق تداني

فألثمُ فاها كي تموتَ حزازتي ...

فيشتد ما ألقى من الهيمان

وما كان مقدار الذي بي من الجوى ...

ليَشْفِيَهُ ما ترشُفُ الشَّفَتانِ

كأنَّ فؤادي ليس يَشْفي غليلَه ...

سوى أنْ يرى الروحَيْن يمتزجان

هكذا هو ابن الرومي كما وصفوه: "منكاح مزواج، يتمنى النساء دائما ويغضب إذا رآهن في حوزة غيره، فيلجأ إلى فنه يستنجده ليخفف من عرام حنقه" (عبود، 2015، صفحة 127). وإذا ما أردنا تفسير ذلك من وجهة نظر علم النفس، فإنّ لفرويد ولتلميذه أدلر رأيين مختلفين، حيث "يرى فرويد أن الغريزة الجنسية هي القوة الدافعة في سلوك البشر، (..) وذهب أدلر Adler إلى أن شعور الإنسان بالنقص هو الذي يدفعه إلى تعويضه" (عبد الله، 2020، صفحة 14).

كل هذا اللهو مع بائعات الهوى، لم يصرف ابن الرومي عن فكرة الزواج، ذلك أنه أشبع غريزة بهيمية ولكنه لم يجد الحب، ذلك أن القوة التي تميز "الحب عن الرغبة الجنسية المجردة، هي هذا الاتجاه المثالي نحو عالم أكمل من الواقع، وأصفى وأجدر بقيمة الإنسان. وهنا يشترك الحب الكبير مع الشعور الديني؛ إذ كلاهما يبحث عن الصفاء، وكلاهما ينشد الجمال الأعلى" (عبد الله، 2020، صفحة 60)، والمودة والرحمة والسكينة، والبنين.

والثابت أن ابن الرومي تزوج مرتين، تزوج الأولى وأنجب منها ثلاثة أولاد، ماتوا جميعا أطفالا، كما ماتت أمهم، فتزوج ثانية ولم ينجب منها. ولم يذكر زوجته الأولى إلا راثيا باكيا عليها بإخلاص، ولم يذكر زوجته الثانية إلا حين طال مكثه أرمل، فطلب مساعدة قصد الزواج. وسنذكر ذلك لاحقا. ورغم أن حضور المرأة في شعر ابن الرومي -كما رأينا-، فإن كثيرا من العابثين يصفونه بالعِنّين، ولربما كان هذا دافعا نفسيا آخر، جعله يدمن معاشرة النساء، ليثبت للناس أنه رجل سليم، وليس عنينا.

3.5 أنا السكر والانتشاء:

تكاد معاقرة الخمرة لا تنفك عن مجالس اللهو والغناء والنساء، وقد انتشرت انتشارا فاحشا في العصر العباسي، في بيوتات الأمراء والوزراء والشرطة والطبقة المتوسطة. وقد قيل: (إذا عمّت خفّت). والشاعر -مثَلُه مَثَلُ كثيرٍ من معاصريه-أطلق العنان لنفسه بشربها، ووصفها، وذكر محاسنها. ولقد وقع خلاف في حكمها بين الفقهاء آنذاك، وكان كثير من فقهاء العراق يرون حِلَّ النبيذ، واشتهر العراقيون بحل النبيذ (أمين، 2012، صفحة 119). فشجع ذلك كثيرا من أمثال الشاعر، على شربه والدعوة إليه. وفي ذلك يقول: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 983-984):

أحلَّ العراقيُّ النبيذَ وشربَهُ ...

وقال الحرامان المدامةُ والسُّكرُ

وقال الحجازيُّ الشرابان واحدٌ ...

فحلّتْ لنا بين اختلافهما الخمرُ

سآخذ من قوليهما طرفيهما ...

وأشربها لا فارقَ الوازر الوزرُ

وهناك عوامل أخرى أسهمت في تعلق الشاعرِ بالخمرةَ وتعاطيها؛ وهي حضوره مجالس اللهو والخمر مع أخيه الأكبر حين كان طفلا، والتصاق ذلك المشهد في ذاكرته. يقول فرويد: "إن التأثيرات التي يتلقاها الطفل منذ الولادة، بل قبل الولادة (..) تصحبه في المستقبل، وأنّ بعض هذه التأثيرات تكبت في النفس بعامل التقاليد والتربية (..) ولكنها تظل حية تحاول الظهور، وقد تتخذ سبلا ملتوية (..) كما في الأحلام، وأحلام اليقظة، والأمراض العصبية" (عبد الله، 2012، صفحة 27).

ويرى ابن الرومي في الخمرة أكثر من مجرد وسيلة لهو أو متعة، حين يزعم أنها تنسي الهم، وتزيل الغم، وتفرح القلوب. حيث يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 568):

خَلّ الزمانَ إذا تَقَاعَسَ أوْ نَجَحْ ...

واشْكُ الهمومَ إلى المُدامةِ والقدَحْ

واحفظْ فؤادَك إنْ شَربتَ ثلاثةً ...

واحْذَرْ عليهِ أنْ يطِيرَ من الفرحْ

هذا دواءٌ للهُمُومِ مُجَرَّبٌ ...

فاسْمَعْ نصيحَةَ حازِمٍ لك قدْ نَصَحْ

ودع الزمانَ فكَمْ نصيحٍ حازمٍ ...

قد رام إصلاحَ الزمان فما صَلَحْ

ومثل هذا الرأي قديم وشائع، ربما صدر من تجار الخمرة أنفسهم، ليروجوا بضاعتهم، وحتى يومنا هذا لا نزال نسمع مثل هذا الكلام (..) قال بعضهم: "من الحكم القديمة، أن الزمان إذا قلب للمرء ظهر المجن، ولم يجد المرء للتغلب عليه من سبيل؛ فإما أن يلجأ إلى السباب والشتائم، وإما أن يكثر من الدعاء والصلاة، وإما أن يشرب الخمر حتى يسكر وإلا فيجن أو ينتحر" (عبد الله، 2020، صفحة 49). وقد بدا لنا أن ابن الرومي - من خلال سيرته الشعرية-، قد فعل كل ذلك، فسب وشتم هاجيا، ولجأ إلى الله أحيانا متبتلا، وشرب الخمرة شابا، كما شربها شيخا، بحجة أنها تنسي معاناة أيام الشيخوخة الثقيلة الطويلة وهمومها. حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 2015)

فأعْذَرُ شُرَّابِ المُدَامَة شَارِبٌ ...

لِتقصِيرِ أيَّامِ المشِيبِ الأطَاوِلِ

إن هذه الأسباب الظاهرة التي لجأ إليها أنا السكر والانتشاء ليبرر شربه الخمر، هي مبررات زائفة، دبرها عقله الباطن، لِيُحاجَّ بها الأنا الأعلى -الضمير-الذي يسائله ويؤنبه على استباحة المحرم، وتجاوز حدود الله -عز وجل-. لأن الأسباب والدوافع الحقيقية مبثوثة في اللاشعور، ومرجعها إلى نزوات طفولة وغرائز بدائية ليس إلا. والتبرير: حيلة لا شعورية، لتبرر الأنا أفعالها التي لا تلقى قبولا أمام المجتمع، أو أمام ضمير الشخصية نفسها، حتى يقتنع الشخص ذاته بينه وبين نفسه، ويحاول إقناع غيره بها (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 88).

4.5 أنا الضعف والبكاء:

يختلف أنا الضعف والبكاء عن الأنوات السابقة: أنا الفخر وأنا العشق وأنا السكر، من حيث المظهر والقوة والخطاب. إنه "أنا" اعتراه ضعف جسمي، وضعف مادي، وضعف نفسي وعقلي، وآخر اجتماعي، فبدا منكسرا شاكيا باكيا، من بنين افتقدهم، وجسم عليل متهالك،

وشيب خضّب شعره، وهرم أحنى ظهره، وشوّه مظهره، وفقر مدقع أحوجه، ودنيا تركته، وملذاتِ سكرٍ وغناءٍ ونساءٍ فاتته، وعُذَّال تحاملوا عليه حسدا وسخرية وهجاء وانتقاصا.

ولكن مظاهر الباطل عن أنا الضعف والبكاء لم تختف بإرادته ورغبته، ولم يختف اللهو والمجون من حياة ابن الرومي في خطابه توبة وزهدا، "ولم يزعم الشاعر أنه ترك الدنيا توبةً وإنما هي التي تركته، إنه ليس قُعود التوبة والانتهاء، بقدر ما هو قُعود مكروه، قعود العياء والعجز، فهو لا ينبذ باطل المجون لأنه فطن إلى فضيلة الحق والزهد، بل لأنه مقسور، بعد أن كلّتْ مطيّة باطله، وكلّ جسده، وأُعيي وتهالك، لِعُزُوفٍ ليس في نفسه، وإنما هو في جسده" (الحاوي، 1959، صفحة 299).

دبَّ الموت ليقضي على أفراد أسرته، فتوفي والده ووالدته وأخوه وخالته، ثم زوجته وأولاده الثلاثة. فقد ابن الرومي الأصول والفروع فلم يبق له غير شعره، ينفثه نفثا ليخفف به من حرّ ما يجد. إذ يقول في رثاء ولده: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 2327-2328)

بكاؤكُما يشْفي وإن كان لا يُجْدي ...
فجُودا فقد أوْدَى نَظيركُمُا عندي
بُنَيَّ الذي أهْدَتْهُ كَفَّايَ للثَّرى ...
فَيَا عِزَّةَ المُهْدَى ويا حَسْرة
المُهدِي
ألا قاتَل اللَّهُ المنايا ورَمْيَها ...
من القَوْمِ حَبَّات القُلوب على عَمْدِ
تَوَخَّى حِمَامُ الموتِ أوْسَطَ صبْيَتي ...
فلله كيفَ اخْتار وَاسطَةَ العِقْدِ
طَوَاهُ الرَّدَى عنّي فأضحَى مَزَارُهُ ...
بعيداً على قُرْب قريباً على بُعْدِ
عجبتُ لقلبي كيف لم ينفَطِرْ لهُ ...
ولوْ أنَّهُ أقْسى من الحجر الصَّلْدِ

لا نجد اعتراضا من الشاعر على قضاء الله في الأبيات، ولا نجد جهلا، ولكن أثره النفسي كبير جدا عليه فَ"يجب ألا ننسى أن فقدان أولاده الثلاثة في حداثتهم، وفقدان زوجته وأخيه الأكبر لا تبقي مجالا للشك في سبب تناقض طبيعته واضطراب أعصابه" (خليل، 1963، صفحة 101). لا يملك الأنا في هذا المقام غير الاستسلام لأمر الله، وكان حقُّ قلبه أن ينفطر على ولده حسرة وأسى، ولكنه لم يحدث أو لم يفعل، لأنه يدرك أن لا جدوى من ذلك، وأقل ما يمكن أن يفعله الأنا أن يكون باكيا، أمام سنّة الموت، تخفيفا من وقعها، وإعلانا عن العجز أمامها، وبثًّا للشكوى، وطلبا للمواساة والتعزية.

ومن رثاء الولد إلى رثاء البلد، رثاء البصرة بعد خرابها إبان ثورة الزنج (255-270هـ)، فهل كان فَقْدُ البلدِ أشَدَّ مِنْ فَقْدِ الولَدِ؟ حيث يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 2377):

أيُّ نومٍ من بعد ما حل بالبصْـ ...
رَةِ من تلكمُ الهناتِ العظام
أيُّ نومٍ من بعد ما انتهك الزَّنْـ ...
جُ جهاراً محارمَ الإسلام
لهفَ نفسي عليكِ أيَّتُها البصـ ...
رةُ لهفاً كمثل لفحِ الضِّرام
لهف نفسي عليك يا معدن الخيـ ...
رات لهْفاً يُعضُّني إبهامي
لهف نفسي يا قُبَّةَ الإسـ ...
لام لهفاً يطولُ منه غرامي
لهف نفسي لجمعكِ المتفاني ...
لهف نفسي لِعِزّكِ المُستضام
بينما أهلُها بأحسنِ حالٍ ...

إذ رماهمْ عبيدُهمْ باصطلامِ

رثاء المدن من الأغراض المستحدثة، ولا نجد فاجعة خراب البصرة بأشد من فاجعة فقْدِ الولد، ولا نحسبه رثاها إلا مواساة لمواليه العباسيين، وتزلفا لهم، وتطييبا لنفوسهم، فلقد كانت البصرة أهم حواضر دولة بني العباس آنذاك، وتعني لهم الكثير، ولكنها لم تكن مسكنا أو موطنا يوما لابن الرومي، الذي كان يكره الترحال والتنقل، وكعادة ابن الرومي نجده يرثي ملذاتٍ كانت بالبصرة، يرثي النوم فيها، ويرثي الخيرات، وجموع الناس وحسن حالهم الذي كان. ويكرر "لهف نفسي" تحسرا وتفجعا، كما كرر "الإسلام"، مشيرا أن شدة تلهفه على البصرة، كونها موطن الإسلام الذي انتهكت محارمه من الزنج. وفي ذلك تناقض صريح، إذْ لا نشعر بصدق الشاعر فيما يزعمه من لهفة نفسه على الإسلام الذي ضاع بضياع البصرة، لأنه كان مناديا لمذهب اللذة دون وقوف عند حدود الإسلام، بل مبديا امتعاضه في بعض شعره من الصيام وغيره. وفي كل الأحوال يبدو الأنا مستضعفا، مدعيا فَقْدَ المكان.

وترتبط الشكوى والمسألة بذل الأنا وانكساره، ويزعم الشاعر أنه يتعفف عن مسألة اللئام، الذين لا يحفظون له ماء وجهه، الذين يضطرونه أن يصرح لهم بخصاصته، ورغم ذلك لا يعطونه حاجته. ويحاول الشاعر هنا أن يخفف من ذلّ الأنا وضعفه، حين يقصد أبا القاسم الوزير دون غيره، لأنه يفهمه ويشعر بحاجته، بالتعريض دون التصريح، وفي ذلك إعزاز للأنا في مقام ضعف وإذلال. قال الشاعر: (ابن الرومي، 2003، صفحة 539)

يا من إذا التَّعْريضُ صافح سَمْعَهُ ...
غَنِيَ العُفاةُ به عن التصريحِ
أشْكُو إليك خَصَاصَةً وتَجَمُّلاً ...
قَدْ بَرَّحَا بي أَيمَا تبريحِ
لتَصُونَ وَجْهِي عَن وُجُوهٍ وُقِّحتْ ...
بالرَّدِّ تَوْقيحاً على توقيحِ

وفي مقام آخر يجمع لنا الشاعر جملة المصائب التي أضعفت أناه وكسرت ذاته وقهرتها؛ ومن ذلك الأسقام والأمراض، وفقد الأحبة، والفقر والحاجة، والوحدة والوحشة. حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 91)

أنا ذاك الذي سَقَتْهُ يدُ السُّقْـ ...
ـمِ كؤوساً من المُرارِ رِواءَ
ورأيت الحِمام في الصُّوَر الشُّنْـ ...
ـعِ وكانت لولا القضاءُ قضاءَ
ورماه الزمان في شُقَّة النفـ ...
ـسِ فأَصْمَى فؤادَه إصْماءَ
وابتلاهُ بالعُسْر في ذاك والوَحْـ ...
ـشةِ حتى أملّ منه البلاءَ

ولربما تفجع ابن الرومي من حلول مشيبه وغروب شبابه أكثر من كل شيء، ولربما عبَّر عما يخالج كل إنسان منا غزاه الشيب، حين يقول (ابن الرومي، 2003، صفحة 586):

كفى حزنا أنّ الشباب معجل ...
قصير الليالي والمشيبَ مخلد
أأيّامَ لَهْوِي هل مَواضيكِ عُوَّدٌ ...
وهل لشباب ضلَّ بالأمس مُنْشَدُ
أقول وقد شابتْ شَوَاتِي وَقَوَّسَتْ ...
قناتي وأضْحَت كِدْنتي تَتَخدَّدُ
ودبَّ كَلالٌ في عظامي أدَبِّي ...
جَنِيبَ العصا أَنأَدُّ أو أتَأَيَّدُ
ولَذَّتْ أحاديثي الرجالُ وأعرضتْ ...
سُليمى وريَّا عن حديثي ومَهْدَدُ

وبُدِّل إعجابُ الغواني تعجُّباً ...

فهنَّ رَوانٍ يَعْتَبِرْن وصُدَّدُ

ولكن المفارقة أنّ الشاعر لم يعلن براءته من معاصيه في الشباب، بل حنّ إليها وبكى عليها، إنه لم يبك شيخوخته إلا لأنها حالت بينه وبين شهواته وملذاته، ويقيم الشاعر مقارنة بين رذائل المشيب وفضائل الشباب، وكأني به يسلي نفسه ويصبرها بقوله: (لئن كان أنا الشيخوخة ضعيفا محروما، فلطالما كان أنا الشباب قويا متمتعا بملذات الدنيا وشهواتها. "وهكذا فإنه يتلهف على الماضي من خلال الحاضر (..) فيتصعد ويتأوه، لأن تعاسته الحاضرة تذكره بسعادته السابقة، فيتنازع بين واقعه البشع وماضيه الجميل" (الحاوي، 1959، صفحة 308).

وكلمة الفصل: إن هذا الأنا بدا باكيا شاكيا، ضعيفا مستضعفا، ومحروما. ولكن الشاعر أراد لذاته وأناه غير ذلك، أراد له عزا ومتعة وقوة، فصرف المتلقي من صورة الواقع إلى صورة الماضي، ليعلن أن ضعفه هذا طارئ، وأنه قد استغل شبابه في لهوه وملذاته أيما استغلال.

5.5 أنا المدح والإطراء:

تغلب قصائد المدح في ديوان ابن الرومي على باقي الأغراض الأخرى، ولكن ابن الرومي لم يجعل مدحياته مدحا خالصا للممدوح، بل ضمنها أغراضا أخرى، مثل الوصف والعتاب والتشكي والخواطر؛ وأقحم أنا المدح مقابل الآخر الممدوح، حتى قال بعضهم: "إن شعر ابن الرومي يثير جملة من القضايا الفنية، (..) فالقارئ لشعره يحس دوماً بأنه أمام لحظة فنية متألقة، فهو ملاحق دوماً بفعاليات جمالية تثير فيه الانفعالات والمتعة الفنية، وتشحذ ذهنه بالتساؤل والمهارة العقلية" (الصفدي، 2012م، صفحة 5). ولعل تساؤلنا في هذا المقام: كيف تجلى أنا المدح والإطراء؟

ظهر أنا المدح والإطراء عند ابن الرومي متعدد الذوات، متناقض الصفات، ومن ذلك المدح بعد الهجاء، والهجاء بعد المدح، فهو رجل مزاجي لا يؤتمن جانبه. و"أعجب ما في نفسية الشاعر متصلا بالمدح هو ذلك التناقض الغريب الذي يحمله على مدح إنسان، ثم يحمله آخر الأمر على هجائه، فهذا بالطبع نفَّر الناس منه، ونفَّره من الناس" (نعمة، 1963، صفحة 103). قال في مدح الأخفش بعد هجائه وصلحهما: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1921)

ذُكِر الأخفشُ القديمُ فقُلنا ...

إن للأخفش الحديثِ لفضلا

بدأ النحوُ ناشئاً فغذاه ...

أحدثُ الأخفشين فانصاتَ كهلا

وتعاصَى فقاده بيديه ...

أحدثُ الأخْفشَين فانقاد رَسْلا

هو بحرٌ مِنَ البحورِ فراتٌ ...

ليس ملحاً وليس حاشاه ضحلا

وحرامٌ عليّ عِرضُك بَسْلٌ ...

أبداً ما رأيتَ عِرضيَ بَسْلا

فالزمِ الصّدْق إنه للفريقَيـ ...

نِ نجاةٌ والخَتْلُ يجزيك خَتلا

إن أنا المدح بدا معظما للممدوح للأخفش، وحلّاه بما يناسبه من الفضائل والمناقب، فوصفه بأنه بحر علم في النحو خاصة، انقاد له النحو وطوّعه على يديه. وهو مع ذلك يحذره من نقض الصلح، وينصحه بالتزام الصدق، كي تدوم المودة بينهما. ويضاعف التعظيم ويبالغ فيه للممدوح في حال الرجاء والطلب، فإذا ممدوحه غيور وشفيق وعادل وجواد ورؤوف وحفيظ

وميسِّر. ليستحثه على العطاء ومثال ذلك ما قاله في مدح إسماعيل بن بلبل (بسج، 2002، صفحة 28):

يا غيوراً أن يُهْتكَ المستورُ ... وشفيقاً أن يهلِك المضرورُ
أنا في حالة رجائيَ فيها ... من سوى الله أو سواك غُرورُ
ومعي سالفُ الموالاة والمدْ ... حِ وشكرٌ مستأنفٌ موفورُ
يا لها حرمةً أبحت حِماها ... وعلى مثلها يَغار الغيورُ
فأغثني أغاثك الله إني ... في يد الدهر مطلقٌ مأسورُ
لا تدعني فأنت آثرُ بالحمْ ... دِ قديماً وفضلك المأثورُ
يا أخا العدل والذي فضلُهُ المبْ ... سوط فينا وبِشره المنشورُ
حُقَّ عند الرجاء فيك المرجّى ... أن يحق المرجوُّ لا المحذورُ
لك جودٌ ورأفةٌ وحِفاظٌ ... وإليك الميسور لا المعسورُ

وجعل الشاعر المدح والموالاة والشكر هي المقابل لعطية الممدوح وغوثه، فهو لا يملك غير لسانه وشعره، وهو معتز بذلك، بل يمنُّ على الممدوح بمدحه عليه وثنائه. وقد عُرِف ابن الرومي بأنه ملحاح في طلبه، يكره مطل الممدوح في العطاء ويكره تجاهله له، فيغضب ويعاتب الممدوح أشد العتاب، حتى يقارب التجريح، ويخاطبه وكأن لديه حقا مشروعا على الممدوح قد منعه منه. ومن ذلك قوله: (بسج، 2002، صفحة 27)

ألا ليت شعري لِمَ مَطَلْتَ مثوبتي ... ولم تُؤتَ من بخلٍ ولم تؤت من عسر
إخالك إذ جوَّدتُ فيكَ مَدائحي ... منعت ثوابي حاسداً لي على شعري
تذكرْ هداك الله أني مادح ... وأنك ممدوح فلا تعدُ بي قدري
عليك بإغناء الفقير وجَبْره ... وفكِّ الأسير المستكين من الأسر
عليك بأفعال الملوك وخلِّني ... وتقريظ ما تأتي من العُرف والنكر
أقول وتعطي نائلاً بعد نائلٍ ... فتغرِف من بحر وأقلع من صخر

أنا المدح عند ابن الرومي فيه عزة وغرور، غير منكسر ولا ذليل، إنه يعتقد أنه يستحق ويستأهل ثمنا وجزاء مدحه، فالمدح تشهير للممدوح ورفع لقدره ومكانته في المجتمع. إننا نشعر أن أنا المدح يساوي نفسه بالآخر الممدوح، ولم يتذلل في مسألته ولم يستجِ، بل يطلب جهارا لا إسرارا، بعزة لا بانكسار، ويقف موقف الند للممدوح. و"كان يتوهم أنه فوق العالمين، أنه جدير بكل احترام وتعظيم، وأن من لا يكرمه فقد نقص قدره، فحق عليه أن يهجوه ويحط من كرامته، وهذا التوهم ناتج عن موهبته الشعرية الحادة المقرونة بضعفه العصبي والتي جعلته رجلا غريب الطباع شاذ الأخلاق ميالا إلى الإسراف في كل شيء" (خليل، 1963، صفحة 103).

فلا عجب أن بعض الممدوحين كانوا ينفرون من مدحه، وكثرة إلحاحه، وشدة عتابه. ويصطلح عليها في علم النفس بالحدة. وهي كمية الطاقة الناجمة من فرد "لمواجهة مثير أو موقف معين، بحيث تبدو في إطار معايير الواقع في صورة

تنحرف -كَمًّا-عن الاستجابة المتوقعة وتزيد عليها في كمية الطاقة المستهلكة" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 167) ورغم ذلك فجمالية أنا المدح غير خافية، وهي في مخالفة المألوف من المديح، حيث نراه مدح طوائف من الناس، من أهل علم وأهل فن وغناء ووزراء وخلفاء وقادة وكتاب وقضاة وعامة، كما مدح الفضائل وتغنى بها، ومدح الأطعمة والأشربة. وفي مدحياته كسر التقاليد المعروفة في المديح وجدد.

6.5 أنا المسخ والهجاء:

كان ابن الرومي هجاء أكثر منه مداحا، قال ابن شرف: "وله في الهجاء، ما ليس له في الإطراء، فتح فيه أبواباً، ووصل منه أسباباً، وخلع منه أثواباً، وطوق فيه رقاباً، يبقين أعماراً وأحقاباً" (خليل، 1963، صفحة 103). ولربما سأل سائل ما سبب ذلك؟ فنقول: لأنه قد أوتي كل أسباب الهجاء النفسية الذاتية والاجتماعية الخارجية، فضلا عن موهبته الشعرية. وهو نفسه كان يدرك هذه الحقيقة، فلقد قال للبحتري -حين أراد أن ينظم في الهجاء- "إيّاك والهجاء يا أبا عبادة؛ فليس من عملك، وهو من عملي" (عمران، 1995، صفحة 420). وتظهر لنا في غرض الهجاء شخصية ابن الرومي وأناه الحقيقي، في أسلوبه ونفسه وروحه، ذلك الأنا المكلوم والمجروح والحاقد والمنتقد والساخر الهاجي والرسام الكاريكاتوري المبدع.

هجا ابن الرومي خلقا كثيرا، ولم يستثن نفسه من ذلك، فالشعور بالنقص كان لا يفارق فكره، من حيث المادة، ومن حيث الخِلْقة والخُلق. قال هاجيا نفسه: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1470)

من كان يبكي الشبابَ من جَزَعٍ ...
فلستُ أبكي عليه من جزعِ

لأن وجهي بقبح صورته ...
ما زال لي كالمشيب والصَّلَعِ

أشبَّ ما كنتُ قطُّ أهرمَ ما ...
كنتُ فسبحان خالَقِ البدع

إذا أخذتُ المرآة أشلفني ...
وجهي وما مُتُّ هول مطَّلعي

شُغِفْتُ بالخرَّد الحِسان وما ...
يصلحُ وجهي إلا لذي ورع

كي يعبدَ اللَه في الفلاة ولا ...
يشهدَ فيه مشاهد الجُمع

إن لهجاء ابن الرومي أناه أو ذاته سببا، هو عدم صلاحية جسده ومظهره ووجهه لاصطياد الحسان، ولأيام اللهو والغواني. إنه ينطق بمذهب اللذة والألم صراحة، فما اللذة عنده إلا في جسد جميل حسن، ينهم من كل المتع والنعم، وما الألم إلا أن تراه دميما مبعدا من ملذاته. ومما يثير العجب حقا رؤيته الدونية للزاهد والمتعبد المنقطع. وذلك حين زعم أنْ لا صلاحية لوجهه الدميم غير الزهد والتعبد والعزلة، في إشارة إلى الاستهانة بالعبادة والعابد، وما ذلك إلا من ضعف وازعه الديني.

ويتمرد أنا الهجاء والمسخ أكثر، ويتجاوز حدوده، حين يهجو شهر رمضان الكريم، حيث يقول (بسج، 2002، صفحة 66):

رمضانُ يزعمُهُ الغواةُ مباركٌ ...
صدقُوا وجدّك إنه لَطويلُ

شهرٌ لعمرُك لا يقلُّ قليلهُ ...
وكذا المبارك ليس منه قليل

تتطاولُ الأيام فيه بجهدِها ...
فكأنَّ عهدَ الأمسِ منه محيل

لو أنه للقاطعين مسافةً ...

لحسبتَ أن الشبر فيها مِيل

لا عجب أن يستثقل ابن الرومي شهر رمضان، وأن يستهجن أيامه الطوال، فقد عهدنا الشاعر كارها لكل ما يحول بينه وبين ملذات الدنيا وأطايبها، ومحبا لكل ما هو جالب لها. ومن دواعي الهجاء عنده -أيضا-أخلاق ذميمة شاعت في مجتمعه العباسي الحضري آنذاك، منها البخل - خاصة- والغدر والحسد، والوقاحة، والغدر.. قال ابن الرومي في مثل ذلك (ابن الرومي، 2003، الصفحات 2003-2004):

وجهك يا عمرو فيه طولُ ...

وفي وجوه الكلاب طولُ

فأين منك الحياءُ قل لي ...

يا كلبُ والكلب لا يقولُ

والكلب وافٍ وفيك غدرٌ ...

ففيك عن قدْره سُفولُ

وقد يحامي عن المواشي ...

وما تحامي ولا تصولُ

مستفعلٌ فاعلٌ فعولٌ ...

مستفعل فاعل فعولُ

بيت كمعناك ليس فيه ...

معنى سوى أنه فضولُ

يظهر أنا الهجاء هنا مصورا كاريكاتوريا، كما يظهر ماسخا للمهجوّ، مُسَوّيًا بينه وبين الكلب، ثم مُنزِّلًا لقدره عن الكلب. وما ذاك إلا أن في الكلب مواصفات حميدة مثل الوفاء وحماية القطيع والمالك وغيرها، لم يرها ابن الرومي في عمرو. ولا نشك أنّ الأنا تعرض هنا لغدر وعدم وفاء بوعد أو عطاء، من طرف أحد القضاء أو الوزراء أو غيرهم، فصبّ جمّ غضبه على المهجوّ، وقد أشرنا إلى أن الشاعر كثيرا ما كان يستجدي ذوي السلطان للعفو عنه من شكوى أو جريرة، أو يستجديهم في مال أو طعام.

ولما كانت طلبات ابن الرومي كثيرة، ما كان لأحد يستطيع تلبيتها، وإنْ كان ذا مَالٍ وجَاهٍ. ولم يكن الشاعر يرى في ذلك غير البخل واللؤم والحسد. فصوّر البخل بأقبح الصور، ومسخ صاحبه مسخا مستكرها تشمئز منه النفوس، في مشهد ساخر كاريكاتوري، نشعر من خلاله بحقد كبير على الأغنياء البخلاء. حيث يقول (ابن الرومي، 2003، الصفحات 641-642):

يُقتّر عيسى على نفسه ...

وليس بباقٍ ولا خالدِ

فلو يستطيع لتقتيره ...

تَنفَّس من منخرٍ واحدِ

عذرناه أيام إعدامه ...

فما عذرُ ذي بَخَلٍ واجِدِ

رَضِيتُ لتفريق أمواله ...

يَدَي وارثٍ ليس بالحامدِ

وإننا "إذا بحثنا عن دوافع الهجاء لديه وجدناها نابعة من إحساسه بالغبن في زمن يرفع الأنذال ويحط ّ الشرفاء، ومن شعور عميق بالخوف أيضا ً ، فكان الهجاء سلاحه الوحيد في وجه زمنه الكالح" (الصفدي، 2012م، صفحة 104)؛ وهكذا يتجلى أنا الهجاء والمسخ والسخرية مؤديا ثلاثة وظائف: إحداها اجتماعية إصلاحية باستهجانه للرذائل ومدحه للفضائل، وثانيها نفسية تنفيسية، فلطالما وجد ابن الرومي في الهجاء متنفسا، وشفاء لما في نفسه من بغض البخلاء. وثالثها فنية، فلقد كان متفوقا في غرض الهجاء -كما أشرنا سابقا-.

7.5 أنا الرحلة والبقاء:

كانت رحلات ابن الرومي في عالم الشعر، تخييلا وتوليدا للمعاني، وعبثا بالألفاظ، أكثر من رحلاته الحقيقية، حيث كانت قليلة ونادرة و"ربما رحل في تلك الأيام إلى الأبلة أو سامرا "سر من رأى" أو بعلبك -وهي فيما نظن- أبعد ما وصل إليه في رحلاته" (العقاد، 2014، صفحة 149). ويزعم العقاد أن ابن الرومي كان أضعف من أن يتحمل مشقة الأسفار، ناهيك عن فشل التوفيق والاسترزاق في تلك المدن، ونكرانه لها ونكرانها له (العقاد، 2014، صفحة 149). قال الشاعر في هذا المعنى (ابن الرومي، 2003، صفحة 2002):

لقد أنكرتني بعلبك وأهلها ...

بل الأرض بل بغداد صاحبة التَّبل

هكذا يبدو أنا الرحلة غريبا مغتربا، غير موفق في أي مكان يقصده، جَسَدٌ غير مؤهل للترحال، وفشلٌ في الرزق والنوال. ولذلك سرعان ما يحِنُّ إلى بغداد وصحبه فيها، ويعزم ألَّا يفارقها بعد العودة، ولربما بدا لنا الشاعر وَفِيًّا لمن ألفهم، خاصة أولئك الذين أحسنوا إليه، والذين تجمعه وإياهم مجالس اللهو والغناء. حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، صفحة 1106)

وإن يقض لي اللَّهُ الرجوعَ فإنهُ ...

عليَّ لَهُ ألا أفارقكم نذر

ولا أبتغي عنكم شُخوصاً ورحلةً ...

يدَ الدهر إلا أن يُفرِّقَنا الدهر

فما العيش إلا قرب من أنتَ آلفٌ ...

وما الموتُ إلا نأيُه عنك والهجر

لا يجد ابن الرومي غضاضةً، أن يصرّح بخوفه من ركوب البحر وقطع البر، لمن نصحوه بالسفر، من أجل طلب الرزق، وعاتبوه على المكث والبقاء-، حيث يقول: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 213-215)

دعِ اللَّومَ إن اللَّومَ عونُ النوائِبِ ...

ولا تتجاوز فيه حدَّ المُعاتِبِ

فما كلُّ من حطَّ الرحالَ بمخفِقٍ ...

ولا كلُّ من شدَّ الرحال بكاسبِ

أذاقتنيَ الأسفارُ ما كَرَّه الغِنَى ...

إليَّ وأغراني برفض المطالبِ

فأصبحتُ في الإثراء أزهدَ زاهدٍ ...

وإن كنت في الإثراء أرغبَ راغبِ

فقدمتُ رجلاً رغبةً في رغيبةٍ

وأخّرتُ رجلاً رهبةً للمعاطبِ

لقِيتُ من البَرِّ التّباريحَ بعدما ...

لقيتُ من البحر ابيضاضَ الذوائبِ

فما زلتُ في خوفٍ وجوعٍ ووحشةٍ ...

وفي سَهَرٍ يستغرقُ الليلَ واصبِ

إنها فوبيا الماء والأعماق وكذا السفر برا؛ جعلته يؤثر البقاء على ما يناله من السفر من عناء. والفوبيا تعني: "الخوف والهول أو النفور (..) وهي خوف شديد مرضي من أشياء أو مواقف نوعية لا حصر لها" (فرج وآخرون، د.ت.ط، صفحة 353). وهكذا يتجلى الأنا خائفا مرعوبا من السفر، وفي الوقت نفسه راغبا في المال محبا له؛ ويجد نفسه بين أمرين أحلاهما مر. ولكنه يفضل السلامة مع الفقر، على الغنى مع الخطر. ومن أجمل ما قيل في إيثار القرار على الأسفار، قوله: (ابن الرومي، 2003، الصفحات 1825-1826)

ولي وطن آليت ألا أبيعه ...

وألا أرى غيري له الدهر مالكا

عهدت به شرخ الشباب ونعمة ...

كنعمة قوم أصبحوا في ظلالكا

فقد ألفته النفس حتى كأنه ...

لها وطن إن فات غودرت هالكا

وحبّب أوطان الرجال إليهم ...

مآرب قضاها الشباب هنالكا

إذا ذكرت أوطانهم ذكّرتهم ...

عهود الصبا فيها فحنّوا لذلكا

ونحسب هذا الوطن الذي يقصده الشاعر بغداد، فقد كانت مدن الشعراء وحواضرهم التي ولدوا فيها أوطانا باصطلاح العصر. ويصف الشاعر حبه لوطنه، ويفسر ذلك الحب والتعلق، بأن مرجعه لذكريات الشباب التي حصلت في الوطن. وهكذا يجعل ذكريات لهوه وشبابه وطيشه في هذا الوطن، هي سبب حبه له. ونخلص إلى أن أنا البقاء والاستقرار كان غالبا على أنا الأسفار، وقد بدا الأنا في حله وترحاله كليهما غير سعيد وغير مطمئن البال. ففي الأولى مخاطرة بالنفس وركوب أهوال، وإن جلبت بعض المال؛ وفي الثانية سلامة نسبية مع الفقر وسوء الحال.

6. الخاتمة:

كانت هذه الصفحات رحلة في ذات ابن الرومي، وتفصيلا لأنواته وتحريرا، وتمييزا لها وتفسيرا. فإذا هي مفتخرة بذاتها مثنية عليها، عاشقة للغناء والنساء، منتشية بالسكر أيما انتشاء، شاكية معلنة ضعفها بالبكاء، مادحة طمعا في العطاء، قاذفة أشد الهجاء، راهبة من الترحال راغبة في البقاء. وكل ذلك إنما يعبر عن النفس البشرية العادية التي أطلق لها صاحبها العنان، في نيل ما أمكن من أطايب الحياة وملذاتها وشهواتها في تمرد على المجتمع وعصيان. وكذلك العباقرة يفعلون، وتختلف حيواتهم الخاصة، عما يقولون من أشعار راقية نفيسة. والنفيس الغالي إنما يخرج من رحم المعاناة، فلولا شقاء هذا الشاعر ومعاناته اجتماعيا ونفسيا ما رأينا هذا الكم الشعري الهائل المقدر بآلاف الصفحات التي سوّدها في ديوانه الضخم؛ ولولا المعاناة ما تولدت هذه التجارب المختلفة وتشاكلت، فصوّرت الذات الشاعرة وما يحيط بها من حجر وبشر، وخير وشر، وشهوة عارمة، وتوبة صارمة، ونقمة ناقمة، ذلك ابن الرومي الذي شغل جيله ومن بعده، وخلّد ذاته من بين أعظم شعراء العربية، وإن كان أبوه روميا وأمه فارسية.

7. قائمة المراجع:

1.7. المؤلفات:

1) أحمد الشويخات، وآخرون. (1999). الموسوعة العربية العالمية (الإصدار 2). مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع. الرياض، السعودية،

2) أحمد أمين. (2012). ضحى الإسلام (الإصدار4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

3) إيليا سليم الحاوي. (1959). ابن الرومي فنه ونفسيته من خلال شعره (الإصدار د.ط). مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني. لبنان.

4) إيمانويل كانط. (1965). نقد العقل المجرد (الإصدار 1). (ترجمة أحمد الشيباني) دار مكتبة الحياة. بيروت، لبنان.

5) بسج أحمد حسن. (2002). شرح ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.

6) جست روفون. (2011). ابن الرومي حياته من شعره. (ترجمة حسين نصار) المركز القومي للترجمة. القاهرة، مصر.

7) حسين نصار. (2003). مقدمة ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). (تحقيق نصار حسين) دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة، مصر.

8) خرفي محمد صالح. (2005). بين الضفتين دراسة نقدية. (الإصدار د.ط). اتحاد الكتاب الجزائريين. الجزائر.

9) ابن خلكان أحمد بن محمد. (1900). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان (الإصدار 1). (تحقيق عباس إحسان) دار صادر. بيروت، لبنان.

10) خليل شرف الدين. (1984). الموسوعة الأدبية الميسرة ابن الرومي. (الإصدار د.ط). دار مكتبة الهلال. لبنان.

11) ركان الصفدي. (2012م). ابن الرومي الشاعر المجدد (الإصدار د.ط). الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة. سوريا.

12) ابن الرومي علي بن العباس. (2003). ديوان ابن الرومي (الإصدار 3). (تحقيق نصار حسين) دار الكتب والوثائق القومية. القاهرة، مصر.

13) سيد قطب. (2003). النقد الأدبي أصوله ومناهجه (الإصدار 8). دار الشروق. القاهرة، مصر.

14) الصفدي خليل أيبك. (2000). الوافي بالوفيات (الإصدار د.ط). (تحقيق أحمد الأرناؤوط، ومصطفى تركي) دار إحياء التراث. بيروت. لبنان.

15) طه حسين. (2013). من حديث الشعر والنثر (الإصدار د.ط). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

16) عبد الله حسين. (2012). فلسفة النفس والشذوذ (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

17) عبد الله حسين. (2020). ظواهر نفسية وجنسية (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

18) العقاد عباس محمود. (2014). ابن الرومي حياته من شعره (الإصدار د.ط). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

19) عمر فروخ. (1981). تاريخ الأدب العربي الأعصر العباسية (الإصدار 4). دار العلم للملايين. بيروت، لبنان.

20) فرج عبد القادر طه، وآخرون. (د.ت.ط). معجم علم النفس والتحليل النفسي (الإصدار 1). دار النهضة العربية. بيروت، لبنان.

21) القيرواني الحسن بن رشيق. (1981). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده (الإصدار د.ط). (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد) دار الجيل. بيروت، لبنان.

22) مارون عبود. (2015). الرؤوس (الإصدار 4). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

المازني عبد القادر. (2010). حصاد الهشيم (الإصدار د.ط). مؤسسة هنداوي. المملكة المتحدة، بريطانيا.

23) المرزباني محمد بن عمران. (1995). الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء (الإصدار 3). دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان.

24) مطر سعد الدين، والوزة عبد الرحمن. (1962). التحليل في الأدب العربي (الإصدار 1). مكتبة لبنان. طرابلس الشرق، لبنان.

25) المهندس وجدي، ووهبة كامل. (1984). معجم المصطلحات في اللغة والأدب (الإصدار 2). مكتبة لبنان. بيروت، لبنان.

2.7. المقالات:

26) إبراهيم نعمة خليل. (1963). صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ابن الرومي. مجلة العربي الكويت، وزارة الإرشاد والأنباء. (العدد53).

27) جردي سيليا. (1956). ابن الرومي. مجلة الأديب، لبنان، مطابع صادروريحاني، المجلد26 (العدد2).

28) عبد الرحمن شكري. (1939). ابن الرومي الشاعر المصور. مجلة الرسالة. القاهرة. مصر. لأحمد حسن الزيات. (العدد292).

29) عبد الرحمن عفيف (1977). ابن الرومي والمرأة. مجلة البيان. رابطة الأدباء الكويتيين. (العدد140).